

القَصَصُ الدِّيْنِي
الحلقة الرابعة
العرب في أوربا

صَقْرُ قَيْشٍ

عبد الحميد جودة السحار

زال مُلْكُ بني أُمَيَّةَ من المشرق ، واستتبَّ الأمرُ
 لأبي العباس ، أولِ خليفَةِ عَبَّاسِي ، وانتقلَ الملكُ من
 « دِمَشق » إلى « بغداد » .

وَوَلَّى أبو العباسِ عمَّهُ عبدَ اللَّهِ بنَ عليَّ الشَّامَ ،
 فبعثَ عبدُ اللَّهِ إلى بني أُمَيَّةَ ، وأظهرَ للنَّاسِ أنَّ أميرَ
 المؤمنين وصَّاهُ بهم ، وأمرَهُ بِصِلَتِهِمْ ، وإلْحَاقِهِمْ فِي
 دِيوَانِهِ ، وَرَدَّ أَمْوَالِهِمْ عَلَيْهِمْ ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ مِنْ أَكَابِرِ
 بني أُمَيَّةَ وَخِيَارِهِمْ ، ثَلَاثَةٌ وَثَمَانُونَ رَجُلًا ، كَانَ فِيهِمْ
 عبدُ الرَّحْمَنِ بنُ مُعَاوِيَةَ بنِ هِشَامٍ .

انطلقَ عبدُ الرَّحْمَنِ لِيَدْخُلَ عَلَى الأميرِ ، وفيما هو
 فِي طَرِيقِهِ ، لَقِيَهِ رَجُلٌ كَانَ عبدُ الرَّحْمَنِ أَحْسَنَ إِلَيْهِ ،
 فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ :

- أَطِيعْنِي الْيَوْمَ فِي كَلِمَةٍ ؛ ثُمَّ اعْصِرْنِي إِلَى يَوْمِ

الْقِيَامَةِ .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : « وَمَا أَطِيعُكَ فِيهِ الْيَوْمَ ؟ » .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ : « أَذْرِكُ مَوْضِعَ سُلْطَانِكَ

وَقَاعِدَتِكَ الْمَغْرِبَ . النَّجَاءُ النَّجَاءُ ! فَإِنَّ هَذَا غَدْرٌ

مِنَ السَّفَاحِ ، وَهُوَ يُرِيدُ قَتْلَ مَنْ بَقِيَ مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ » .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ : « وَيَحْكُ ، إِنَّهُ كِتَابُ أَبِي

الْعَبَّاسِ قَدِيمَ عَلَيْهِ ، يَأْمُرُهُ فِيهِ بِصِلَتِنَا ، وَرَدِّ أَمْوَالِنَا

إِلَيْنَا ، وَإِلْحَاقِنَا بِالْعَطَاءِ الْكَامِلِ ، وَالرِّزْقِ الْوَافِرِ » .

فَقَالَ لَهُ الرَّجُلُ فِي حِمَاةٍ : « وَيَحْكُ الْغَفْلُ !

وَاللَّهِ لَا يَسْتَقِرُّ مَلِكُ بَنِي الْعَبَّاسِ ، وَلَا يَسْتَوْلُونَ عَلَى

سُلْطَانٍ ، وَمِنْكُمْ عَيْنٌ تَطْرِفُ » .

فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ :

- مَا أَنَا بِالَّذِي يُطِيعُكَ فِي هَذَا .

فراح الرجل يتوسل إليه ، قال :

- النجاء النجاء . والهرب الهرب ، فاخرج فانا
معك ، ومالي لك ، ولى عشرون ألف دينار
مصرورة ، كنت أعددتها لهذا الوقت .

وظل الرجل يجادلُه ، حتى أقنعه بالهرب ، فخرج
عبد الرحمن يريد المغرب ، ودخل أكابر بني أمية
على عبد الله بن علي ، فقتلهم ، وأخذ أموالهم .

٢

سار عبد الرحمن ومولاه بدر إلى المغرب ؛ ولما
استقر به المقام ، واطمأن أنه أصبح بعيدا عن أمراء
بني العباس ، بعث مولاه بدرًا إلى الأندلس ، يدعو
له ، ويُمهدُ لدخوله عند شيعة بني مروان هناك .

وبلغ بدر الأندلس ، وكانت العداوات ناشبة بين
اليمنية والمضريّة ، فاتفقت اليمنية على توليته ،
وشدّ أزره ، إذا ما وفد إلى الأندلس ، ورجع بدر
مولاة إليه بالخبر .

وفي سنة ثمان وثلاثين ومائة ، في خلافة أبي
جعفر المنصور ، أجاز عبد الرحمن بن معاوية البحر
وحده ، لا يرافقه إلا بدر مولاة ، وشبابه ، وعزيمته
الماضية ، وعقله الراجح ، وإرادته الحديدية ،
وحذقه الشديد ، وشخصيته الجبارة القويّة .

ونزل بساحل الأندلس ، فأتاه قوم من أهل
إشبيلية فبايعوه ، ثم انتقل إلى كورة ريّة ، فبايعه
عاملها ، وانطلق إلى قرطبة ، فاجتمعت إليه اليمنية ،
ونمي خبره إلى والي الأندلس ، يوسف

ابن عبد الرحمن الفهرى ، وكان غازیًا بجلیقة ،
فرجع إلى قرطبة ، لیرى ما یجرى هناك .

وقابل یوسف وزیر الصّمیل بن حاتم ، وحادثه
فی أمر عبد الرحمن ، الذی جاء من المشرق یطلب
البيعة لنفسه ، فأشار علیه وزیر بالتلطّف له ،
والمکر به ، لکونه صغیر السن ، حدیث عهد بنعمة ،
فحاول یوسف أن یستميل عبد الرحمن الداخل ،
وأن یمکر به . ولكن باءت محاولته بالإخفاق ، فقد
كان عبد الرحمن صغیر السن حقًا ، ولكنه كان
راجح العقل فطنًا ، ولم یکن من المیسور أن
یستدرج ، لیمکر به یوسف والصّمیل .

وعلا ذکر الداخل ، وتوافقت إلیه جنود الأمصار ،
وتدفقت علیه المضریة ، ولم یبق مع یوسف غیر

الفهرية والقيسية ، فزحف الداخل بجيوشه ، ليَقْضِيَ
على يوسفَ ومن معه ، ليستبَّ له الأمرُ في
الأندلس .

والتقى الجمعان بظاهر قرطبة ، وانتصر عبدُ
الرحمن ، وانكشف يوسف ، ولجأ إلى غرناطة ،
فتحصن بها ؛ وانطلق خلفه الأمير عبد الرحمن ،
ليجهز عليه ، حتى أصبح الأندلسُ له وحده ،
لا يَنَازِعُه فيها مُنَازِع .

٣

لم يكنْ لأُمراءِ المسلمين في الأندلس شغلٌ إلا قتالُ
بعضهم بعضاً ، لم يكونوا من بيوت عريقة في الملك ،
ولم يكنْ لهم تراث . أمّا عبدُ الرحمن ، فقد كان بقيَّة

أسرة مالكة ، لها حضارتها وآثارها ؛ فلما استتب له
الأمر ، راح يبنى المسجد الجامع والقصر بقرطبة ،
ويضع بذور أعظم حضارة للمسلمين في الأندلس .
وكان هدف المسلمين في الأندلس ، الاستيلاء
على فرنسا ، والانطلاق منها إلى أوربة ، وكانت
الإمدادات الإسلامية تصل إلى الأندلس ، من الشام
ومصر والمغرب ؛ أما وقد أصبح العباسيون حكام
المشرق ، وأصبح عبد الرحمن الداخل وحده في
الأندلس ، فقد صار غزو فرنسا صعبا ، فما كانت
الأندلس وحدها بقادرة على تجهيز حملات عظيمة ،
كفيلة بالاستيلاء على أوربة .

كانت فرنسا يشتد ساعدها يوما بعد يوم ، فقد
أصبحت كلها وحدة واحدة ، في يد « ببين » ؛

وكانت قادرة لدى الحاجة أن تستعين بجيوش جرارة
من ألمانيا وبلجيكا وإيطاليا ، فلم يعد مسلمو
الأندلس ، المهاجمين لمسيحي فرنسا ، بل انقلب
الأمر ، وأصبح « بين » يهدد حصون العرب
الأمامية في فرنسا ، ويؤلب الثائرين على أمرهم في
قرطبة ، ومما زاد الطين بلة ، التناقص الشديد بين
الخليفة في بغداد ، والأمير في قرطبة ، ؛ فقد أرسل
المنصور ، الخليفة العباسي ، من سواحل إفريقيا ،
أسطولاً لمحاربة عبد الرحمن الداخل ، ليضم
الأندلس إلى ملكه ، ولتوحيد الدولة الإسلامية ،
كما كانت لعهد بني أمية .

ونزل قائد أسطول المنصور بياجة الأندلس ، داعياً
لأبي جعفر ، وقد نشر اللواء الأسود ، شعار

العباسيين ، فاجتمع إليه الأمراء الشائرون ؛ ولكن
عبد الرحمن لقيه بنواحي إشبيلية ، فقاتله أياماً حتى
هزّمه ، وقتله في سبعة آلاف من أصحابه ، وبعث
عبد الرحمن برءوس كثير منهم إلى القيروان ومكة ،
فألقيت في أسواقها سراً ، ومعها اللواء الأسود ،
وكتاب المنصور لقائده أسطوله .

وبلغ المنصور ذلك ، فارتاع وقال :

— ما هذا إلا شيطان ، والحمد لله الذي جعل بيننا
وبينه البحر .

٤

تَيَقَّنَ « بيبين » ملك فرنسا ، من العداوة الناشئة
بين بغداد وقرطبة ، فلم يكتف بالتضريب بين أمراء
المسلمين ، بل رأى أن يستعين بالمنصور على

عبد الرحمن الداخل ، عدوُّهما المشترك . فَبَعَثَ
رُسُلَهُ إِلَى بَغْدَادَ ، وَلَبَثُوا بِهَا ثَلَاثَ سِنِينَ ، ثُمَّ رَجَعُوا
إِلَى فَرَنْسَا وَمَعَهُمْ رِسَالُ الْخَلِيفَةِ ، فَنَزَلُوا فِي مَرْسِيلِيَا ،
وَصَعِدُوا إِلَى مَقَرِّ « بِيَّيْن » ، فَبَالَغَ فِي الْإِحْتِفَاءِ
بِهِمْ ، وَقَضَوْا ذَلِكَ الشَّتَاءَ فِي مَدِينَةِ « مِتر »
بِاللُّورِينَ ، ثُمَّ أَمَرَ بِإِقَامَتِهِمْ فِي قَصْرِ سَلَسَ عَلَى
ضِفَافِ اللُّوَارِ ، ثُمَّ أَعْيَدُوا إِلَى الشَّرْقِ عَنْ طَرِيقِ
مَرْسِيلِيَا ، وَمَعَهُمُ الْهَدَايَا إِلَى الْخَلِيفَةِ .

وَفَكَرَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ ، بَعْدَ أَنْ اسْتَبَّ لَهُ الْأَمْرُ ، فِي
مَدِينَةِ « أَرْبُونَةِ » وَمَا يَلِيهَا مِنْ جَنُوبِيَّ فَرَنْسَا ،
فَسَرَّحَ جَيْشًا زَحَفَ إِلَى الْبِيرَانِيَةِ ، لِرَفْعِ الْحِصَارِ عَنْ
« أَرْبُونَةِ » .

كَانَ جَهْوَرُ أَهْلِ « أَرْبُونَةِ » مِنَ الْمَسِيحِيِّينَ ، وَقَدْ

أَثَقَلَتْ كَاهِلَهُمُ الْحُرُوبُ ، فَبِعُثُوا إِلَى « بَيْين » سِرًّا ،
يَتَّفِقُونَ مَعَهُ أَنْ يَتَفَضُّوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ ، وَيَضْمُرُوا
إِلَى جَيْشِهِ ، عَلَى أَنْ يَكُونُوا أَحْرَارًا فِي بِلَدَتِهِمْ ، وَأَنْ
تَكُونَ إِدَارَةُ شُؤْنِهِمْ فِي أَيْدِيهِمْ ، وَوَافِقَ « بَيْين »
عَلَى ذَلِكَ ، فِي غَفْلَةٍ مِنَ الْحَامِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ .

كَانَتْ الْحَامِيَةُ الْإِسْلَامِيَّةُ مَظْمِنَةً لِأَهَالِي
« أَرْبُونَةَ » ، وَفِي غَفْلَةٍ مِنْهَا هَجَمَ الْأَهْلُونَ عَلَيْهَا ،
وَأَعْمَلُوا سِيوفَهُمْ فِيهَا ، فَذَبَحُوهَا عَسَ أَخْرِهَا ،
وَدَخَلَهَا « بَيْين » وَشَحَنَهَا بِالْخُرَّاسِ ، وَانْقَرَضَتْ
مِنْهَا حُكُومَةُ الْإِسْلَامِ .

صَارَ الْمُسْلِمُونَ يَبْغُونَ غَرَضَ الدُّنْيَا . رَأَوْا بِأَعْيُنِهِمْ
ظِلَّ الْإِسْلَامِ يَتَقَلَّصُ ، وَعَلَى ذَلِكَ كَانُوا يُبْرَمُونَ
مَعَاهدات ، وَيُقِيمُونَ عَلاَقَاتٍ مَعَ الْمُلُوكِ الَّذِينَ

يُناوِثُونَ الْإِسْلَامَ ، لِيَعُودَ حَيْثُ بَدَأَ .

٥

مات « بيبين » وصارَ ابنُه شارلمان ملكا على فرنسا ، فاتَّبَعَ خُطَّةَ أَبِيهِ ، فَأَخَذَ يُحَرِّضُ أَمْرَاءَ الْأَنْدَلُسِ ، مِنْ مُسْلِمِينَ وَمَسِيحِيِّينَ ، عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ أَمِيرِ قُرْطُبَةٍ . كَانَ يَقُولُ لِهَذَا الْفَرِيقِ : إِنَّهُ إِنَّمَا يُرِيدُ أَنْ يُحَرِّرَهُمْ مِنْ اسْتِبْدَادِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، وَيَقُولُ لِلذَلِكَ الْفَرِيقِ : إِنَّهُ حَامِي النِّصْرَانِيَّةِ الطَّبِيعِيِّ ، الْحَافِظُ لِلْكَنِيسَةِ .

وَنَارَ أَمِيرَانِ مِنْ أَمْرَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَقَاطِعَةِ نَهْرِ إِبْرَةِ ، عَلَى عَبْدِ الرَّحْمَنِ ، فَاجْتَازا الْبِيرَانِيَةَ قَاصِدَيْنِ شَارلمان ، وَاسْتَعْدِيَاهُ عَلَى أَمِيرِ قُرْطُبَةٍ . كَانَ شَارلمانُ

يرقبُ هذه الفرصة ، حتى ينقضَّ على إسبانيا ،
ويعلمك ولو جانباً منها ، فأمرَ بتعبئة الجيوش ،
وسرعانَ ما خفَّت إليه جيوشُ من ألمانيا وفرنسا
ولمبارديا ، وزحفَ بهم إلى البيرانيه .

كان شالمان واثقاً من أنَّ الأهلين سرعانَ ما
ينضمُّون إليه في مسيره ، ولكن أخطأَ حدسه ، فقد
ثارَ المسلمون في وجهه ، وقتلوه قتالاً مريراً .
وتكشفَ له أنَّ الأمراء إنما استعانوا به لينالوا
استقلالهم ، لا ليستبدلوا عبدَ الرحمن بشارلمان .

وثارَ مسيحيو الجبال عليه ، فقد عَقَدُوا العزمَ على
ألا يخضعُوا لحكم أجنبىٍّ أيّاً كان ، فما وصلَ
شارلمان إلى البيرانيه ، حتى وجدَ نفسه مُحاطاً
بالأعداء .

تَحَصَّنَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي سَرْقِسطَةَ ، فَتَكَسَّرَتْ عَلَيْهَا
هَجَمَاتُ شَارْلَمَانِ ، وَأَخْفَقَ فِي الْاِسْتِيلَاءِ عَلَيْهَا ،
وَبَيْنَمَا شَارْلَمَانُ فِي حَرْبِهِ ، إِذْ جَاءَهُ الصَّرِيخُ بِأَنَّ أُمَّةَ
السُّكْسُونِ أَبَتْ أَنْ تَتْرَكَ وَثِيئَتَهَا ، وَبِأَنَّهَا هَبَّتْ
لِلْقِتَالِ ، فَاضْطُرَّ شَارْلَمَانُ إِلَى مَغَادِرَةِ إِسْبَانِيَا .

٦

كَانَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فِي كِفَاحٍ دَائِمٍ ، لِتَوْطِيدِ مُلْكِهِ ،
الَّذِي أَسَمَّهُ بِقُوَّةٍ سَاعِدِهِ وَحَسَنَ تَدْبِيرِهِ . وَكَانَ
يُضْطَرُّ إِلَى الشَّدَّةِ أحيانًا ، لِيُرْهَبَ عَدُوُّهُ ، وَلَكِنَّهُ
كَانَ حَلِيمًا عَاقِلًا ، مُحِبًّا لِلْعُلُومِ .

لَقَدْ قَذَفَ نَفْسَهُ فِي لُجَجِ الْمَهَالِكِ ، لِابْتِنَاءِ مَجْدِهِ ،
فَاقْتَحَمَ جَزِيرَةَ شَاسَعَةَ ، تَتَقَسَّمُ جَنْدَهَا الْعَصِيَّاتُ ،

فاحتال حتى أسلس له قيادُ الأمر ، وأسّس دولة
مرهوبة الجانب ، يخشاها الفرنج ، ولا يجروُ على
مناواتها خلفاءُ بغداد .

وقد أعجب أبو جعفر المنصورُ به ، على الرغم مما
كان بينهما من عداوة ، فكان يسمّيه « صقرُ
قريش » ، لما رأى أنّه فعلَ بالأندلس ما فعل ،
وأنه نهّدَ إليها من أناي ديار المشرق ، من غيرِ عصابة
ولا أنصار ، فغلبَ أهلها على أمرهم ، وتناولَ الملكَ
من أيديهم ، بقوةِ شكيمة ، ومضى عزّم ، حتى انقأ
له الأمر .

ومات « صقرُ قريش » عبدُ الرحمن بن معاوية
ابن هشام ، بعد أن أسّس ملكًا جديدًا فريدًا لبني
أُميّة في الأندلس ، وقد استخلفَ بعده ابنه هشامًا .
كان عظيمًا ، وكان جليلا ، حتّى إنّ أعداءه
ترحموا عليه يوم أن مات .